ابن البيطار



مكتبة الطفل ★ مكتبة الطفل ★ مكتبة الطفل ★ مكتبة الطفل ★ مكتبة الطفل ★ مكتبة الطفل ★ مكتبة

١

سلسلة تاريخية

تأليف : عبدالتواب يوسف
رسوم : مؤيد نعمة
تصميم : مكي مسعود

مكتبة الطفل

دائرة ثقافة الأطفال . وزارة الثقافة والفنون . الجمهورية العراقية


ابن البيطار

كانت القاعة الكبيرة في كلية الزراعة ، بجامعة (...) قد امتلأت عن آخرِها بالخريجين ، والخريجات ، بالطلاب ، والطالبات ، ينتظرون في اهتمام كبير مُناقشةَ «رسالة الدكتوراه» .. وكانت تدور بينهم أحاديث هامسة خافتة احتراماً للجو العلمي الذي يشيع في المكان ، وتتطلع أعينهم بين الحين والآخر الى المنصة الكبيرة التي وُضعت عليها مُكبرّاتٌ للصوت ، ومن خلفِها ثلاثة مقاعد جلدية أنيقة .. وإلى يسارها مِنَصّة صغيرة ، تكفي لفردٍ واحد ، ووراءها مقعد خشبي ، ومن فوقها مصباحٌ صغير ، ومُكبّر صوتٍ ، وكوب ماء ..

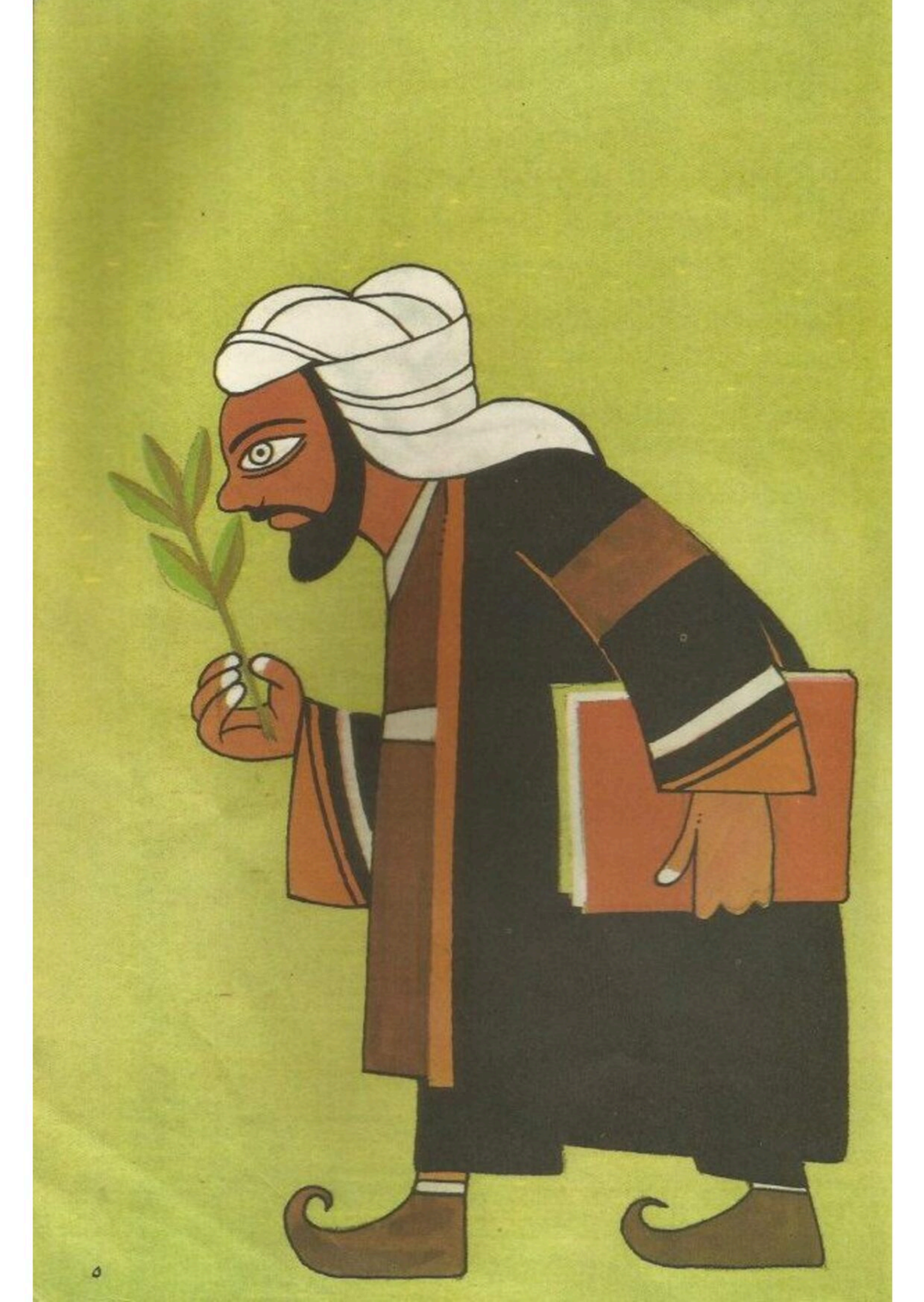
وفي الساعة الخامسة الا خمس دقائق ، دخل الى القاعة رجل له لحية صغيرة تناثرت فيها شعرات بيضاء ، وكان يرتدي جلباباً بسيطاً خشناً ، ومن فوقه عباءةُ سوداء - يسمّونها الآن «الروب الجامعي» - وكان يحمل في إحدى يديه عود نبات أخضر ، يقرّبُهُ أحياناً من أنفه . وفي يده الاخرى ثلاثة كتب ضخمة ، وَضَعها على المنصة الصغيرة . وتوقع الجالسون أن يدير ظهره اليهم ثم ينصرف ، لأنهم ظنوه الفرّاش الذي كُلّف بحملِ الكتب ووَضْعِها في مكانها ، وكانت المفاجأة التي أدهشت الجميع ان الرجل جلس الى المقعد في ثقةٍ وبساطةٍ وهدوء .. وتغامزَ الحاضرون وضحك بعضهم في صوت مكتوم . وارتفعَ الهمسُ قليلاً ، الى ان أعلنت دقات الساعة الخامسة . عند ذلك صَمَتَ الجميع ووقفوا في هدوء واحترام شديدين ومعهم ذلك الرجلُ ذو العباءة السوداء .. فقد دخلت لجنة الاختبار ، وقد ارتدى اعضاؤها الثلاثة العباءات السوداء ، ومضوا الى المنصة . وقبل ان يجلسوا حيوا الحاضرين في وقار .

وأشار رئيس اللجنة - الذي يجلس بين زميليه - الى الموجودين أن يجلسوا ، بهزة من رأسه قائلاً :

تفضلوا ..

وجلسوا ، والتفتَ الى اليسار ، وقالَ في رقةٍ للرَّجُلِ وهو يلوّح بيده اليمنى : - اجلس ..

وساد صمتٌ عميقٌ لفترةٍ طالت بعض الوقت ، والكل يتطلع الى المشهد في هدوء ، دون أن يفتح أحد فمه بكلمة . بل راحوا يرقبون الاساتذة الكبار ، والرجلُ قد اتخذَ مكانَهُ ، وقد مال رأسهُ على صدره ، حتى لامَسَتْ لحيته الصغيرة



ثوبَهُ الاسود ، وبعدها ارتفعَ صوتُ رئيسِ اللجنةِ يقول : بســم الله الرحمن الرحيم ..

وفتح الرئيسُ ملفاً جلدياً جميلاً أنيقاً موضوعاً أمامَهُ ، وبَدَأَ يقرأ :

- أيها الاخوة والابناء .. أَصْدَرَ مجلسُ كليةِ الزراعة بجامعة (...) العربية قراراً بتشكيل لجنة ثلاثية تضم : د . (فلان) .. الذي يتشرف بالحديث اليكم ، و د . (فلان) .. (وأشار الى الاستاذ الجالس الى يمينه) و د . (فلان) .. (وأشار الى الاستاذ الجالس الى يساره) ، لمناقشة الطالب «ضياء الدين بن البيطار» في البحوث المقدمة منه للحصول على درجة الدكتوراه في علم النبات ..

وعاد الرئيس الى السكوت لحظة ، قبل ان يضيف :

فليتفضل «الطالب» بتلخيص بحوثه ، أولاً ...

وفي هدوء وقفَ الطالبُ ، وصفق له بعضُ الموجودين يحيّونه ، فلم يهتم كثيراً بذلك بل عقد ذراعيه على صدره ، ولم تمتد يده الى كتبه ، ولم يُخرج كالمعتاد أوراقاً يقرأ منها ملخّصَ بحوثِهِ وكتبه ، وراحَ يتحدث في بساطةٍ مذهلة ، قائلاً :

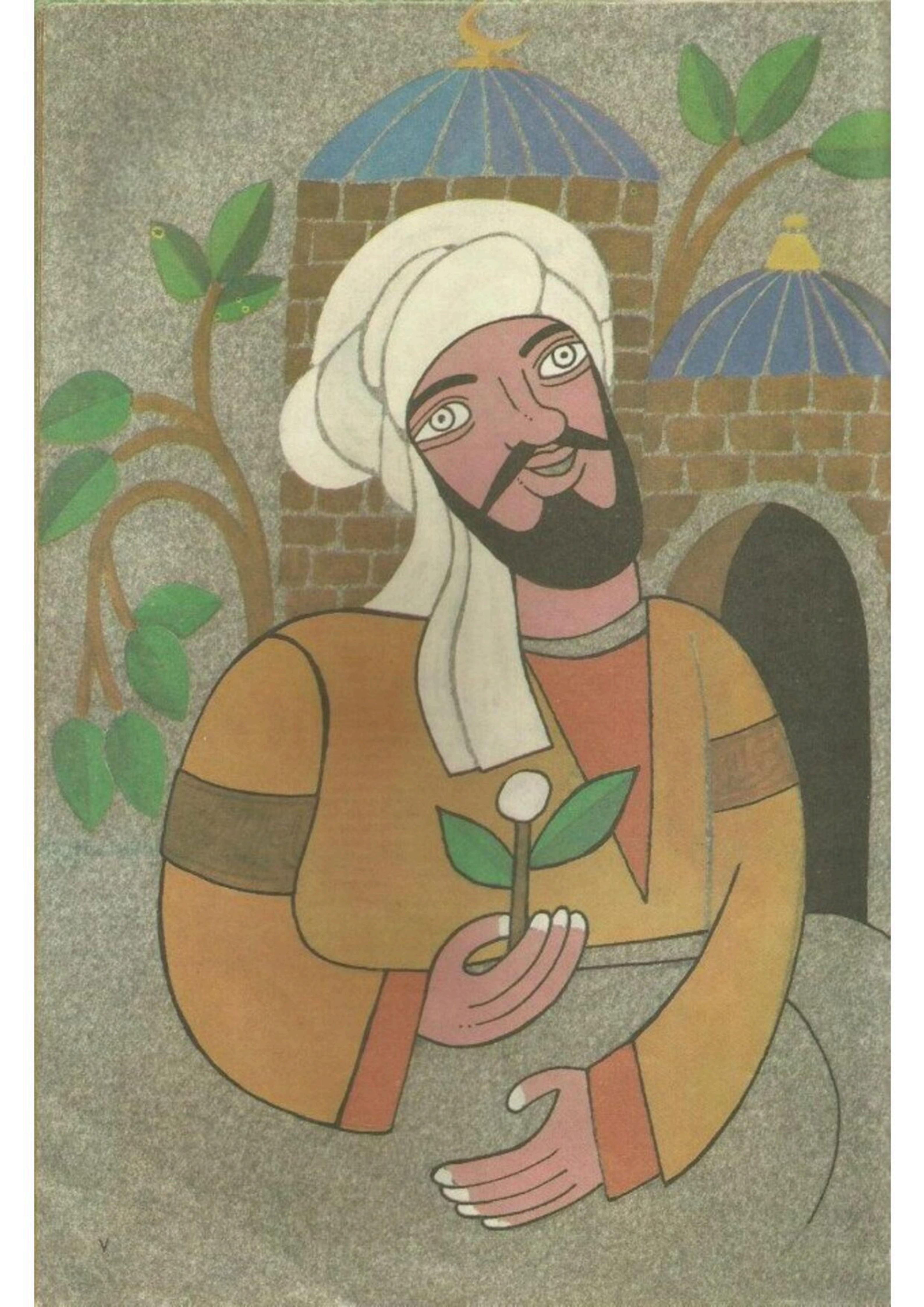
- اسمحوا لي سادتي أن أشكركم على اهتمامكم ببحوثي وكتبي .. واسمحوا لي أن أسأل : هل كان لا بد لي أن أنتظر نحو (٨٠٠) سنة من أجل هذه اللحظة ؟ !

ارتفعت همسات الدهشة ، وفتحَ الموجودونَ عيونَهم في ذهول ، و (الطالب) ضياءُالدين بن البيطار يتحدث ، وقد حمل بين يديه الكتب الثلاثة ذات الاوراق الصفراء ، كأنها رقائق الذهب ، وأضاف :

- هذه هي رسائلي اليكم ، بعثتُ بها قبل ان أمضي من الحياة عام ١٢٤٨م .

ووضعَ الكتبَ على المنصة وتناول أولها ، وأمسكَ به ليرفعَهُ قليلا .. قائلاً :

- هذا كتابي «الجامعُ لمفردات الادوية والاغذية» .. حاولت أن أستقصي فيه ذِكرَ الادويةِ المفردة وأسماءها وتحريرَها وقُواها ومنافعها ، وبَيّنتُ الصحيحَ منها وما وقعَ الاشتباهُ فيه .. وقد اعتمدتُ في بحوثي على كتبٍ عديدة لأكثرَ من مائةٍ وخمسين مؤلفاً بينهم عشرون مؤلفاً يونانياً .. ولم يقف الامر بالطبع عند حدِّ النقل ، بل وضعتُ مَلاحظاتي الخاصة ، كما وصفتُ فيه ما يزيد على (١٤٠٠) عقّارٍ نباتي وحيواني ومعدني ، من بينها ٣٠٠ عقّار ودواء جديد . وقد بينتُ الفائدةَ الطبية لجميع هذه النباتات وكيف يمكن استعمالُها كأدوية وأغذية . وفي



المقدمة أوضحت الغرض من كتابي هذا .. فقد لخصتُ فيه المقالات الخمس التي كتبها «ديوسقوريدس» في كتابه الذي سماه «الافضل» ، وضمّنته المقالات الست التي كتبها العالم «جالينوس» . كما أخذتُ عن بعض من سبقوني ، والذين يُعاصرونني ، وأسندتُ إليهم كلّ ما قالوه .. ثم أضفت من عندي ما استطعت أن أصل اليه بالمشاهدة والنظر وما ثبت لديّ بالخِبْرة لا بالخَبَر .. وتجنّبتُ التكرارَ في كل ما كتبتُه .. كما أنني رتبتُ الكتابَ وفقَ الحروف الابجدية وعلى طريقة القاموس ، لكي أُسهّل الامرَ على القراء ، ليطالعوه بدون تعب أو صعوبة .. وهو بين أيديكم منذ ذلك الحين الى اليوم ، وأرجو أن يكون بعضُكم قد قرأه واهتم به .. وأكتفي بهذا الملخص لكتابي ، لأنتقل الى الكتاب الثاني وعنوانه (المغني في الادوية المفردة) .

ووضعَ ضياءُالدين بن البيطار الكتابَ الاولَ على المنصة ، وحملَ الكتاب التالي له ، في حين همَس عضوٌ من اعضاء اللجنة في أذن رئيسها :

ـ كان يجب على كلياتِ الصيدلةِ أن تهتمّ بأعمالِ هذا الرجل !

قال الرئيس : لقد اهتمت بها كثيراً ، وكُتُبُهُ ظلت مئات السنين هي المَراجعَ الاولى في الصيدلةِ في كلياتها في أوروبا خلال العصور الوسطىٰ .

كان ضياءُالدين بن البيطار قد صَمَتَ حتى ينتهي تهامُس العضو مع رئيس اللجنة ، وبعد ذلك بدأ يقول :

ـ هذا الكتاب وضعته للملك الصالح الايوبي .. حاكم مصر وبطلها في حربها ضد الصليبيين ..

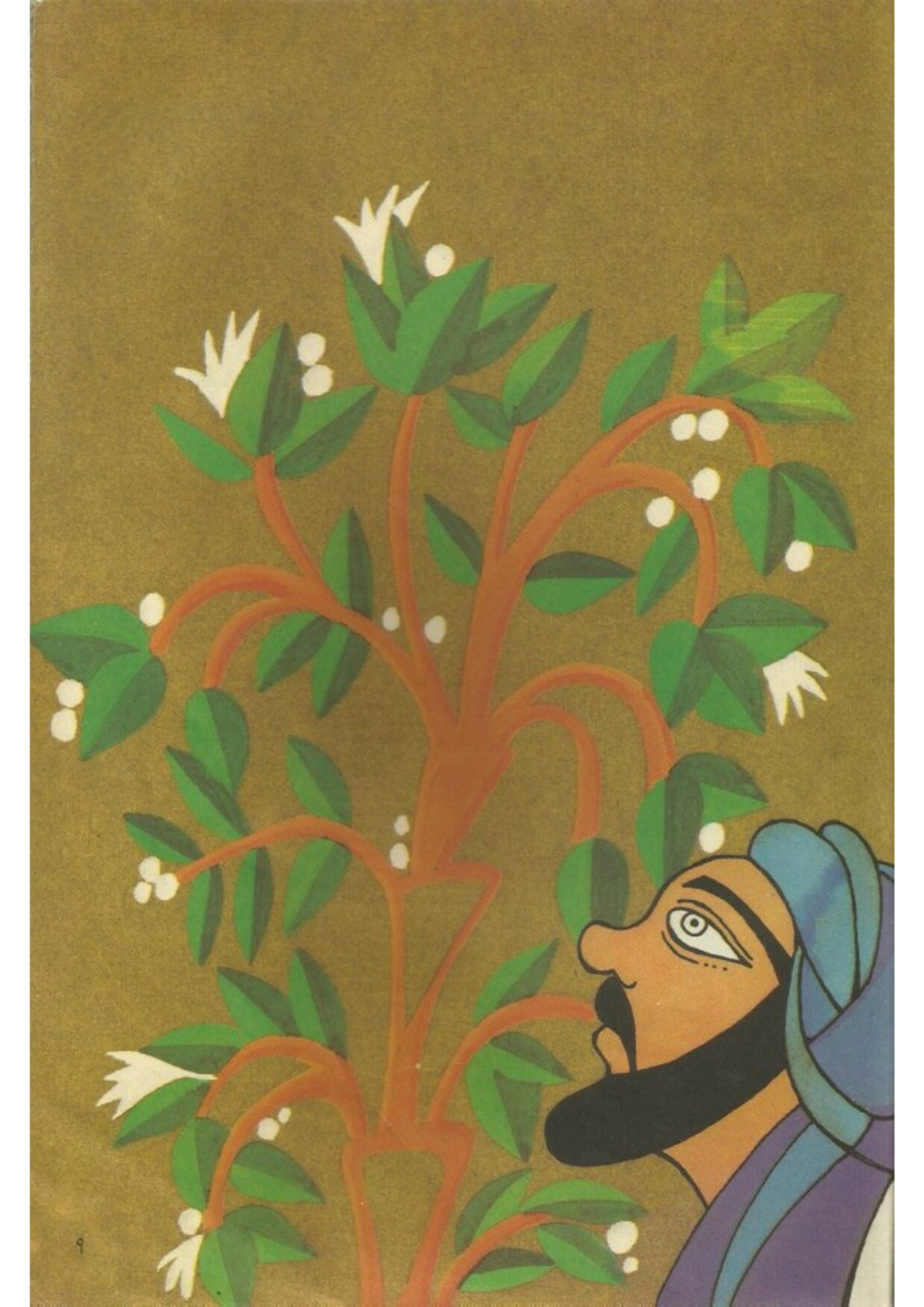
سأل عضوُ اللجنة الجالس الى اليسار الرئيسَ في همس :

ـ أظنه كان متزوجاً من شجرة الدر ؟

أجاب الرئيس بسرعة : نعم .. ومات الملك الصالح الايوبي خلال معارك مصر مع الصليبيين في المنصورة .. حين نجحت قواتنا في هزيمتهم والقبض على لويس التاسع وسجنه في دار ابن لقمان .

وواصل ضياءالدين بن البيطار حديثه :

ـ ولقد كانت مصر دائماً رائدة في علم الاعشاب ، والنبات ، والصيدلة .. حتى ان قرية «أبو تيج» ـ في صعيد مصر ـ أيام عهد الفراعنة القدماء كانت مخزن



الدواء لكل مصر . وأصبحت هذه المدينة عَلَماً على كل مكان يوضع فيه الدواء والعطور ، وتناقلت الدنيا كلها اسمَها ، وبدّلته ليصبح «بوتيك» وهو اسمٌ لكل متجر صغير يفتح في أوربا منذ ذلك الحين .

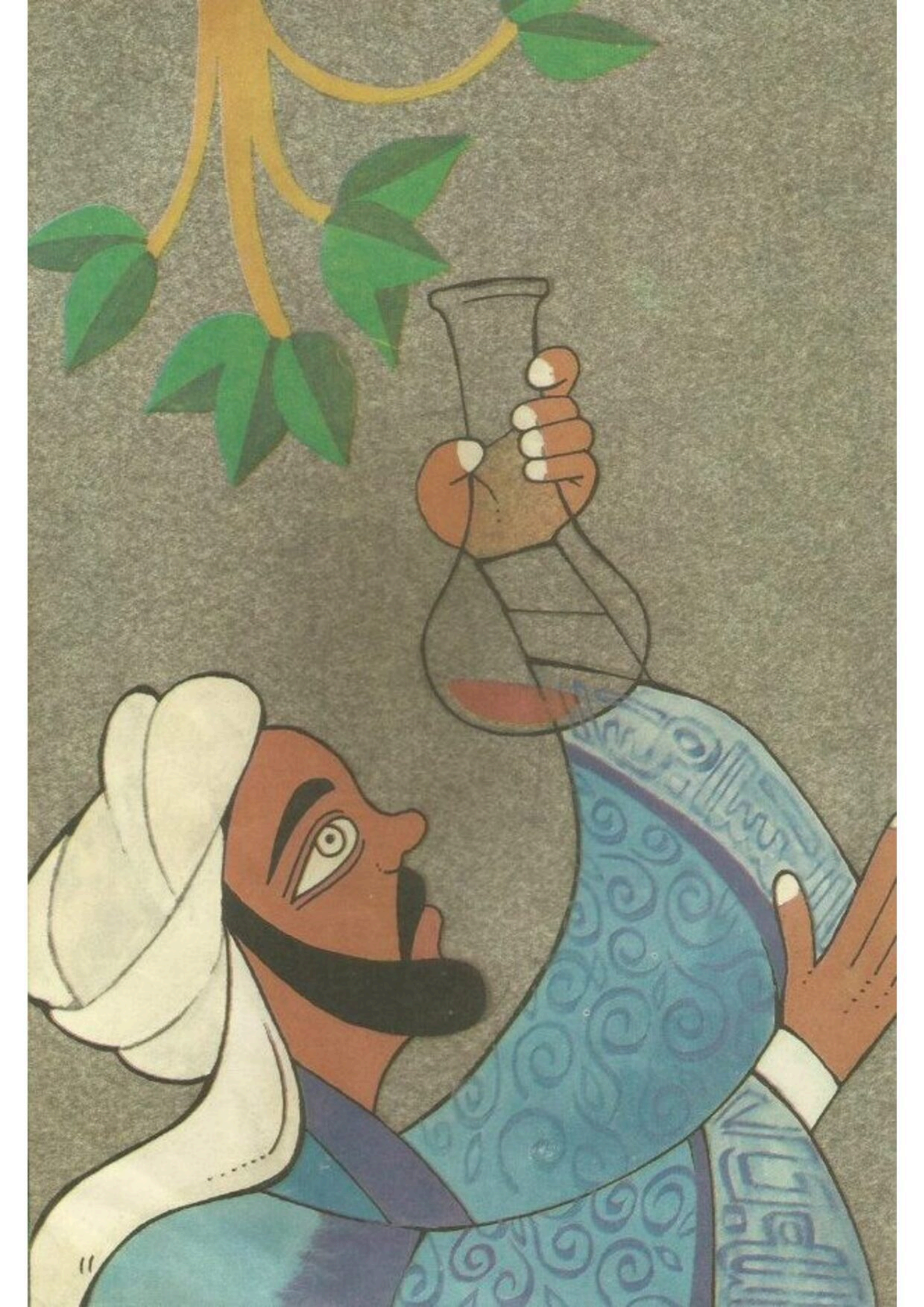
مال عضو اللجنة الجالس الى اليمين على الرئيس ، وقال بسرعة :

ـ لم أكن أعرف هذه المعلومةَ الطريفة .

وكان الحاضرون قد فتحوا آذانَهم وقلوبَهم لحديث ضياءالدين بن البيطار فقد خلط الحديث عن النباتات والاعشاب بالحديث عن التاريخ القديم لمصر كما تَعَرّض لنضالها العظيم ضد الغزاة الاوروبيين . وقد بات واضحا للموجودين أنهم أمام عالِمٍ يشمل علمه الكثير ، فهو لا يقصر اهتمامه على ما تخصص فيه ، أي علم النبات ، بل يتوسع في معارفه ، ويقرأ في كل ألوان العلم .. ان الرجل يشدّهم بحديثه ليفتحوا له قلوبهم ، وآذانهم ، وعيونهم .. وسمعوه يقول :

وكتابي هذا ـ المغني ـ مُرَتَّبٌ حَسَبَ الاعضاء ومداواتها .. تحدثت عن العين مثلاً ، وأمراضِها ، وسُبُل علاجها .. وينقسم كتابي الى عشرين فصلاً . وأتيت فيه بعلاج كل عضو ، بصورة موجزة مركزة . أي أني تكلمت عن علاج أمراض الرأس ، والاذن ، وغير ذلك .. كما ذكرتُ اسمَ الدواءِ الذي نأخذه من الاعشاب والنباتات ضد الحمى ، وضد السموم .. ولعلكم تلاحظون أني في عرضي لبحوثي ودراساتي ركزتُ لكم على النتائج ، وعلى وسائل الاستفادة من النباتات والاعشاب ذاتها ، والتي هي موضوع دراساتي والتي من أجلها تجولتُ في أغلب أرجاء وطني العربي الكبير ، في مصر والشام والمغرب ، بل عبرت البحر المتوسط الى اليونان وبلاد الروم وأسبانيا ، كما زرت تركيا جرياً وراء معرفة النبات ، وجَمْعِ الحشائش .. ولا يفوتني أن أذكرَ بالتقدير الملكَ الكاملَ محمد بن أبي بكر بن أيوب ، الذي جعلني رئيساً على سائر العَشّابين في مصر .وكان يعتمد على شخصي وعلمي في الدواء ، وبعد وفاته أبقاني ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب في خدمته .. وقد ساعدني ذلك كثيراً في عملي ودراساتي في علم النبات والدواء . واني لارجو أن أكون بكتابي الثاني هذا قد أسهمت بجديد في هذا المجال .

وضعَ ضياءُالدين بن البيطار كتابَهُ على المنصة في هدوء ، فوق الكتاب الاول .. وأمتدت يدُهُ وهو يلتقط أنفاسَهُ الى كتابه الثالث ، ورفعه ليراه أعضاء



اللجنة وجمهورُ الحاضرين في القاعة . وقبل أن يبدأ حديثه مال عضوا اللجنة على الرئيس ، وتهامسوا :

- هل يُعقل ان نحكم على أعمالِ رجلٍ هو استاذ أجيالِ الدنيا في علم النبات ؟؟

قال الرئيس : ولم لا نحكم على أعماله ؟ لقد تقدم علم النبات كثيراً عما كان في ايامه .

قال عضو اليمين : مهما تقدم ، فأنني أحس أني أمام (استاذ) لي ..

عقب الرئيس : هو استاذ للجميع .. لجميع علماء النبات . وقد اجتمعنا هنا من أجل أن ننصفه . فإن اللقبَ العلمي الكبير - الدكتوراه - لم يكن موجودا في عصره ، ولكنه من أحق الناس بحمله ، ومن أجل ذلك لا بد من قراءة أعماله ، ومناقشة بحوثه - كما تقضي بذلك اللوائح والقوانين - وهذا اجراء طبيعي جداً ، وأرجو أن تسمحوا له بتقديم بقية أعماله ..

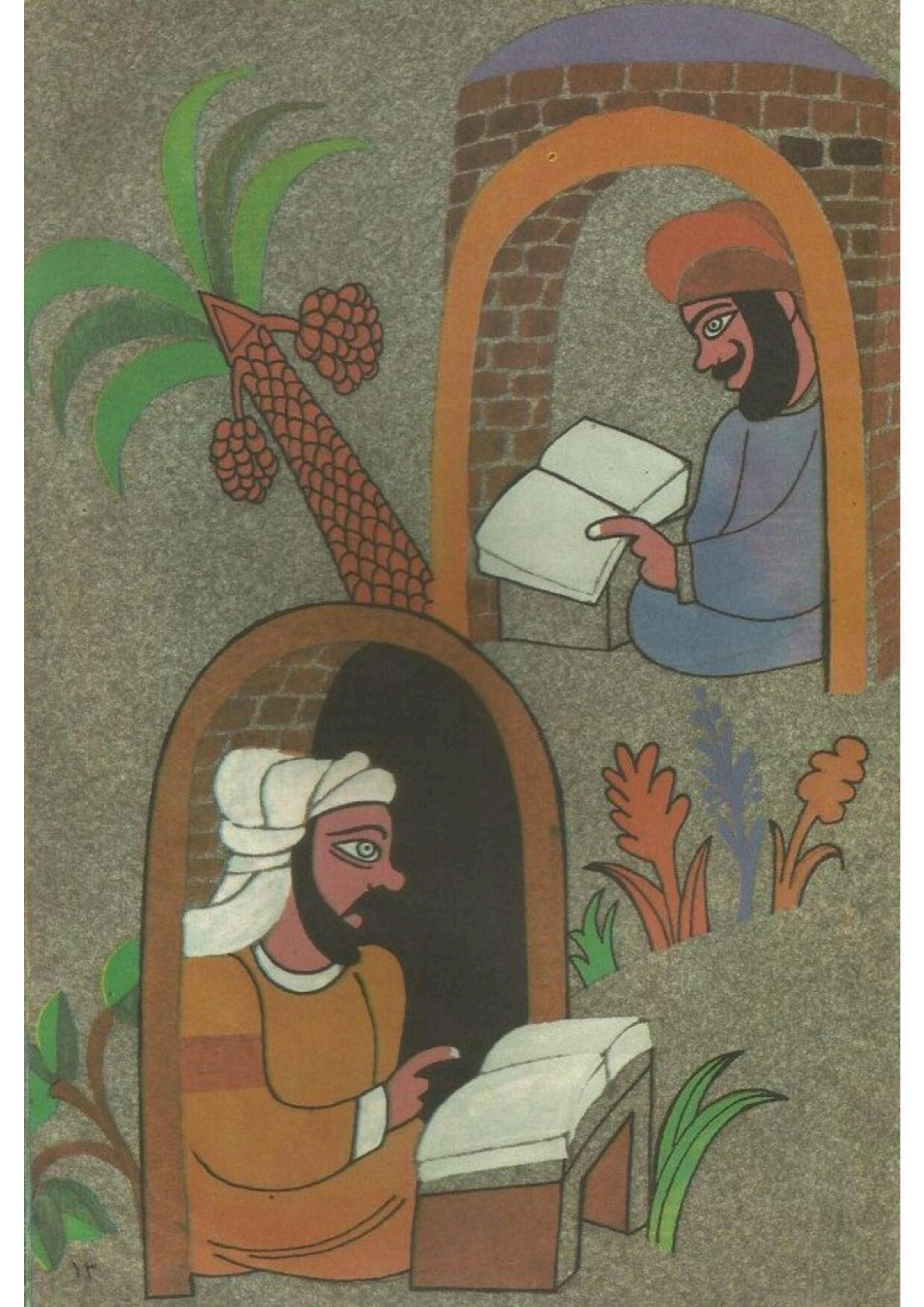
قال عضو اليسار : ان الرجل متقدم على عصره ، ولم يكن من اللائق أن يقف هذا الموقف كأنه «طالب» .

وكان الصوت قد ارتفع ، حتى ترامى الى أُذُنَيْ ضياءالدين بن البيطار الذي استعدَّ ليواصلَ حديثَه ، فأشارَ اليه الرئيس ..

- تفضل .. استكمل حديثك ..

قال ضياءالدين بن البيطار :

- لقد كنت عمري كله طالبَ علم ، وظللتُ كذلك .. أيامَ عشتُ في مصر مُعززاً مكرَّماً ، وما شغلَها دفاعُها عن نفسِها ضد القوات الزاحفة عليها من أوربا والتي احتلت مدينة دمياط وزحفت على المنصورة ، وما شغلها دفاعُها عن نفسِها عن العلم والعلماء ، بل كانت تشعرُ ان مسؤوليتَها الاولى أن تهزمَ العدو في مجال العلم كما هزمته في ميدان القتال .. كما اني كنت طالبَ علمٍ حين ذهبتُ الى دمشق والتقيت فيها بابن أبي أُصَيبِعَة عام ٦٣٣ هـ وكنا نجتمعُ معاً للمذاكرة ، ونحضر الكتبَ المؤلفة في الادوية والاعشاب مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي ونقرأ فيها معاً .. ومن حصيلة خبراتي وقراءاتي هذه وضعتُ كتابي الثالث الذي جعلت عنوانه «ميزان الطبيب» . على اني قد فاتني أن أذكر أني لم أهتم



فقط بأمراض الانسان ، بل درست أيضا أمراض المحاصيل ، تلك الامراض التي تضرُّ بها ، والتي تتمثل في بعض الحشائش التي تنبت في الحقل وتسرق من النباتات غذاءها ، وتقتل نموها . لذلك كنت أولَ من نصحَ بعدم زراعة محصولٍ لمدة معينة حتى تموت الحشائش التي تعيش عليه .. وكان من ضمن نتائج دراساتي انني نجحت في معرفة الكثير من الاسرار الطبية التي توجد في النباتات . وبعض هذه النباتات تنمو وحدَها ، أي لا يزرعها الانسان ، بل تطير بذورها في الهواء بما يشبه الاجنحة مثلا أو تقع البذرة على الارض بلا قصد - مثل نواة البلح - وترويها مياه الامطار أو المياه المتسربة من التُرَعِ والقنوات لتنمو بدون رعاية من الناس .. والبعضُ الآخرُ هو الذي يزرعُه الانسان ، يُمَهِّدُ له الارض ، ويدفن البذرة ويروي الحقل .. ان فنَّ الزراعة ليس ابنَ اليوم ، فقد عرفه أبناء وطنِنا العربي منذ ألوف السنين .. من هذه النباتات وتلك استخلصتُ الدواء للانسان ، وللنبات ذاته .. وأظنني أضفت بعض أشياء الى ما يُسَمّىٰ في عصركم «عِلْمَ الحقل» والذي هو أساس الدراسة في كليات الزراعة .. وأيضاً أضفتُ الكثيرَ مما يُدَرَّسُ اليومَ في كليات الصيدلة .. وبودّي أن أكتفي بهذا ، ويعلمُ الله أني لا أحبُّ الحديثَ عن نفسي ، ولكنه في مثل هذا الموقف أمر ضروري .. وكلُّ ما تحدثتُ عنه هو أعمالي التي أعتقد انها استرعت انتباهكم كثيراً .. وشكراً .

أشارَ رئيسُ لجنة الاختبار الى ضياءالدين بن البيطار أن يجلس . وتهامَسَ مع الاعضاء قليلاً ثم قال :

- ليس لدينا بعد هذا العرض الموجز الوافي لاعمال وكُتُبِ ضياءِالدين بن البيطار الا أن نبدأ في مناقشته كما تقضي بذلك الاجراءات .. وسؤالي الاول له .. هل ترجمتَ عن «ديسقوريدس» و «جالينوس»؟ .

أجاب ابن البيطار : نعم .. وأثبتُّ هذا .. الاسلوبُ العلميُّ يحتّم عليَّ أن أذكرَ بكل وضوحٍ وصراحة المصادرَ التي أنقل أو أترجم عنها .. وبعد ذلك قلتُ ما عندي .

وسأله عضو اليمين : وماذا فعلتَ بالنسبة لاسماء النباتات والكلمات العلمية الهامة في كتبك ؟

أجاب : قَيَّدْتُها بوضوحٍ كامل ، وقمتُ بتشكيلها بالكامل ليَسْهُلَ نُطقها ،



ويثبت ، ولا يقع فيها تحريف أو تصحيف ..

وسأله عضو اليسار في اللجنة : هل نقلتَ كلَّ ما عثرتَ عليه في علم الاعشاب والنباتات في كتب من سبقوك ؟

أجاب ابن البيطار : لا .. كنت انقل ما أستوثقُ من صَوَابه ، بعد الدراسة والتجربة .. وكنت أشيرُ الى ما وقع فيه بعض من سبقوني من غلطٍ أو أخطاء . إذ أن اعتمادي لم يكن على النقل ، بل على المشاهدة والتجربة ..

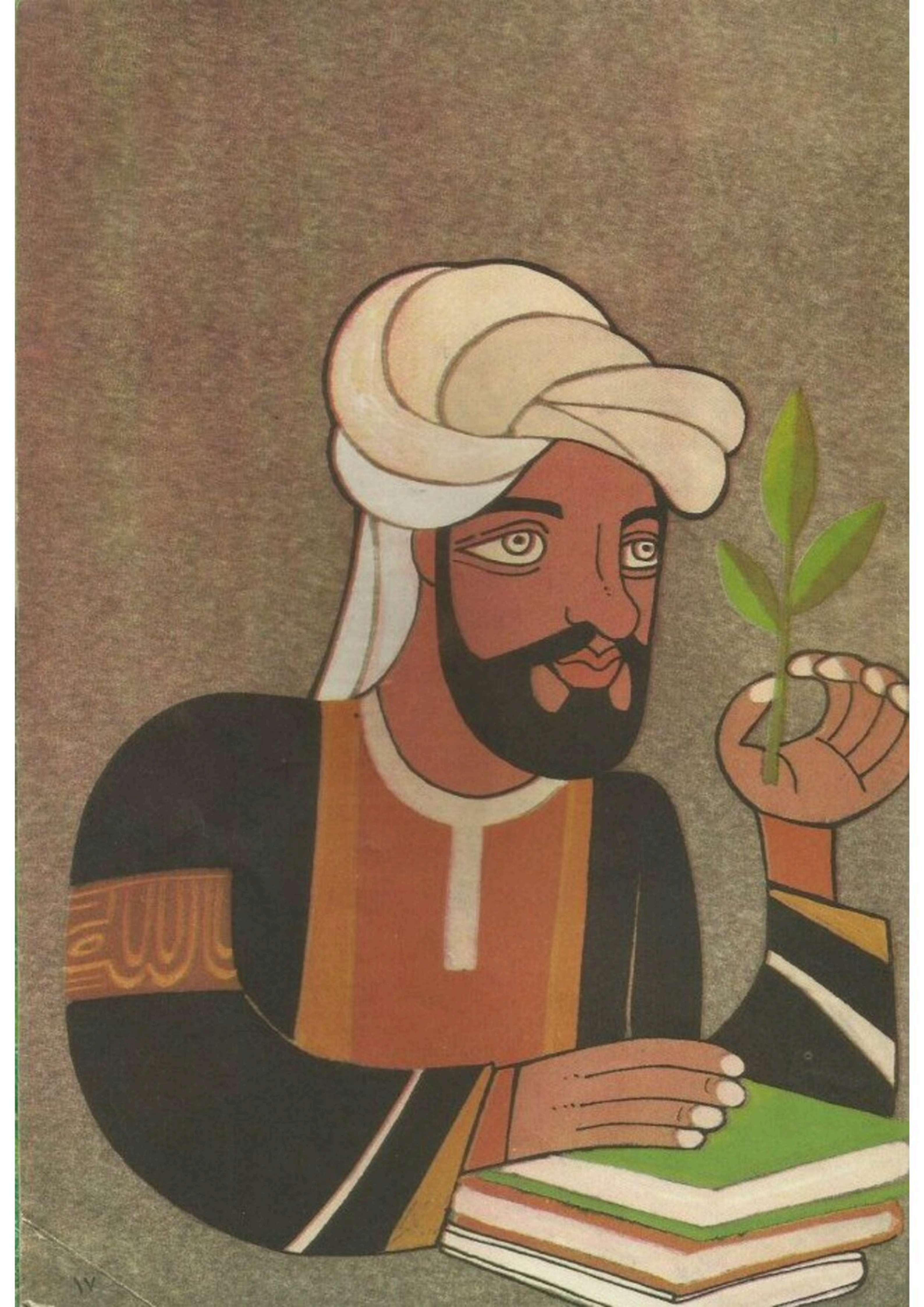
وعند ذلك أعلن رئيس اللجنة انها ستختلي بعض الوقت .. وغادَرت القاعة ، ودارت بين الحاضرين مناقشاتٌ طويلة مهمة ، فالجميعُ في حضرةِ العالِمِ العظيم ضياءِالدين بن البيطار ، وبعد لحظاتٍ عاد أعضاءُ اللجنة يسبقهم الرئيس .. واتخذوا مكانَهم ، وفتح الرئيسُ مِلَفاً كان معه وبدأ يقرأ منه ..

ـ استعرضتِ اللجنة أعمالَ ضياءالدين بن البيطار في علمِ النبات وتتضمنها الكتب الثلاثة التي وصلت إلينا وهي (الجامع لمفردات الادوية والاغذية) و (المغني في الادوية المفردة) و (ميزان الطبيب) .. والكتابُ الاول طبع في مصر عام ١٢٩١ هجرية ، وتُرجم الى اللغة اللاتينية واللغة الفرنسية ، وكان أهمُّ مراجع علم النبات في أوربا وعنه أخذت لغاتهم كثيراً من الاسماء التي أطلقها على العقاقير والمواد الطبية .. ويقول عنها ماكس ماير هوف «انه أعظم كتاب عربي ظهر في علم النبات» .. واعترف «روكسا» بأهمية الكتاب وقيمته وأثره في تقدم علم النبات عالميا .. كما ذكر «لكرك» الكثير من المواد الطبيعية التي أدخلها ابن البيطار في العقاقير ، والمفردات الطبية ، وقال انها تزيد على ثمانين مادة ..

وقد قررت اللجنة على أثر مناقشاتها منح اسم ضياءالدين بن البيطار المتوفى بدمشق ٦٤٦ هـ الموافق لسنة ١٢٤٨ م الدكتوراه مع مرتبة الشرف ، وتوصي بتبادل كتبه ورسائله مع جامعات العالم ، وتحقيقها واعادة طبعها بشكل لائق ، على أساس أنها ثروة انسانية عالمية نادرة المثال ..

ودوت القاعة بالتصفيق ..

وانحنى العالم الجليل في تواضع ، وفجأة اختفى من القاعة .. وتطلع الجميع في ذهول الى المنصة التي كان يجلس اليها ليجدوها قد زينت فجأة بالنباتات الخضراء ، وأغصان الشجر ، والزهور ..





سعر النسخة ٥٠ فلساً

طبع دار الحرية للطباعة ـ توزيع الدار الوطنية